مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الرابع عشر
المجلد (٥) العدد (١)
٢٠٢٤ (٥٨٣-٦٠١)

مجلة أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

خطاب الوباء من خلال مقامة أبي علي عمر الزجال المالقي (مقاربة حجاجية)

الدكتور عبد العزيز ابايا

*جامعة محمد الخامس، الرباط، **المغرب***

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٨ مارس ٢٠٢٤م

*** مقدمة**

الجائحة كما تؤثر على الأجساد والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تؤثر أيضا على العقول والإبداع الفني، فكان من البديهي أن تتأثر اللغة الإبداعية مواكبة وواصفة، وحتى ساخرة من التداعيات المخيفة للوباء، فكأنه شكل من أشكال مقاومة الإنسان الذاتية إزاء ما يتعرض له من فتك ودمار، وباعتبار النص الإبداعي تجل من تجليات الواقع، فإن هذا الواقع لا يعدو أن يكون ذا علاقة سببية فقط، حيث يعمد المبدع إلى الظاهرة فيحيلها صورا تعبيرية تنضح حياة وحيوية واستباقية، وباعتبار الأدب شكلا من أشكال الحياة، فمن الطبيعي أن يتفشى فيه الوباء كما تفشى بين الناس، لكن بقدر ما ينتج عن فشوه بين الكائنات الحية موتا وفتكا ودمارا، بقدر ما يكون فشوه في الإبداع حياة وحركية تمثلت في نصوص خالدة أثرت الإنسانية بمشاعر وأحاسيس هي نتاج الألم والأمل.

ولا شك أن الأدب هو انعكاس للحياة الواقعية للأفراد والأمم، فهو مرآة تلك الحياة وصداها المتردد في بواطن العقل بطريقة تجذب القلوب وتأنس لها العقول، فيأتي الإبداع الأدبي مستعيرا هواجس الخوف من انتقال العدوى ومصورا لحالة الهلع الذي يتحول لرهاب مزمن يلتصق التصاقا بلغة التواصل ولا ينفك عنها إلا بمرور سنوات بل قرونا عديدة. و باعتبار أدب الوباء هو فرع من أدب الكوارث والنوازل فسنجد أن اللغة العربية قد حفظت لنا تراثا عظيما من هذا النوع من الكتابة من خلال كتب الآداب والتاريخ والطب، بل منهم من أفرد له تواليف خاصة، ولا عجب في ذلك فقد كان الوباء يشكل تحديا رهيبا حيث كان يقتل الملايين في حملات متعددة ومتقاربة شملت كل أنحاء العالم، ويكفي

الاطلاع على أحد هذه المؤلفات مثل كتاب " ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" للجلال السيوطي ليتضح هول المشهد الناضح بصور الفتك والدمار، حتى قال ابن أبي حجلة عن وباء القرن الثامن مثلا " مات فيه على وجه التقريب نصف العالم أو أكثر".

كان لابد أن نجد صدى تلك المعاناة في كل أنواع التعبيرات اللغوية، ومنها النثر فحملت لنا الرحلات والرسائل والمقامات هموم أصحابها وطغت لغة الخوف وانتشرت رائحة الموت من ثنايا العبارات والصور المتخيلة، وممن استعمل تيمة الوباء في أدبه نجد الفقيه أبا علي الزجال في مقامته التي صاغها عن الوباء، حيث استغل فيها الشعور بالخوف الجمعي و امتطاه وسيلة لدعوة أمير غرناطة للخروج من مقر ملكه والانتقال الى مدينته المحبوبة مالقة، وقد لاحظت من خلال الاحتكاك الأولي لهذا النص استخداما لافتا لوسائل إقناعية حاجج بها أبو علي مخاطبه للإذعان لمقصده، ومن هنا استقر الرأي على مقاربة هذه المقامة مقاربة حجاجية زاوجت فيها بين آليات الحجاجين البلاغي واللغوي، متوسلا بنظرية الحجاج اللغوي التي أرسى دعائمها أزفالد ديكرو منهجا، بالإضافة إلى نظرية الفيلسوف بيرلمان حول البلاغة الجديدة، وذلك إيمانا مني بتكامل المنهجين اللغوي والبلاغي في الحجاج من حيث كون جميع الخطابات تكتنز أنماطا متعددة من الحجج اللغوية والبلاغية والمنطقية.

*** أبو علي المالقي ومقامته في الوباء**

ذهب عدد من الدارسين الى أن الأندلس كانت أول بلد في الغرب الاسلامي وصلته المقامات، حيث تم تلقى أهل الأندلس رسائل بديع الزمان الهمذاني ومقاماته أواسط القرن الخامس الهجري[1]، وذلك من خلال رحلاتهم، فقد كانوا ينقلون مشاهداتهم وقراءاتهم إلى مواطنيهم حين يعودون، فتصدى لذلك بعضهم عن طريق حلقات التدريس، فيما لجأ آخرون الى كتابتها "رحلة" فضلا عن نقل الآثار الأدبية بنصها ونسخها ونشرها في الأندلس[2]. وكان من أول المتذوقين لمقامات الهمداني ابن شهيد، وأكثر ما أعجبه فيها غرض الوصف، ولذلك أنشأ على منوالها قطعا في وصف الماء والبرغوث والثعلب والحلوى، وهكذا فقد ظهرت ملامح الظهور والتأثر في الأدب الأندلسي واضحة منذ ازدهار هذا الفن على يد بديع الزمان الهمداني، إلا ان شغف الأندلسيين بدا واضحا أكثر بما طرأ عليها من تطور على يد تلميذه الحريري، وبخاصة بعدما سمعها بعضهم منه مباشرة في بغداد كما أثبت ذلك ابن الآبار في "تكملته"[3].

ولعل اللقاء المباشر الذي حظي به الأندلسيون مع الحريري كان له الأثر البالغ في ظهور حركة نقدية واسعة حول مقاماته، فقد سمعها منه أحمد بن محمد بن خلف الشاطبي، وأبو القاسم بن جهور[4]، وقد كان لهذا الأخير أكبر أثر في نشرها بالأندلس، إذ تلقاه عنه عدد كبير من التلامذة.

---

[1] - فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي محمد السولامي، ص 49 – الرباط 1992

[2] - ينظر مقال "المقامة في الأدب المغربي والأندلسي" لعبد العزيز بومهرة، ص 21 - مجلة "التواصل"، عدد 31 – سبتمبر 2012

[3] - التكملة لكتاب الصلة، ص 260 منشورات العطار الحسيني - 1906

[4] - المصدر السابق، ص 27

وقد انتشرت المقامات في الأندلس بعد ذلك، وتنوعت مواضيعها واتسعت مجالاتها، إلا أنها كانت أقل الأنواع الأدبية إنتاجا مقارنة مع الشعر والخطب والرسائل، بل وحتى في القرن الثامن- وهو من أزهى عصورها- لم نعثر إلا على عدد قليل من المقامات لا يتجاوز العشر، برز فيها ابن الخطيب فحبَر أكثرها، ومن خلال استقصاء بسيط لمضامين المقامات الأندلسية، يلاحظ تنوع في مضامينها وثراء في اهتماماتها، وتعددا في اختصاصاتها، بل وفرادة في شكلها البنائي، بحيث طرحت عنها كثيرا من القيود التي وضعها مؤسسها الهمذاني فاستحدثوا قواعد جديدة وابتدعوا ملامح مغايرة فكانت تفتقد أعمالهم الركائز الهامة من فن المقامة المعروف، ويكفي للتدليل على ذلك انمحاء عنصر الكدية الذي كان ركنا أساسيا في المقامات الهمذانية والحريرية، مقابل اهتمام واضح بمواضيع أخرى كالرحلة: مثل مقامات ابن الخطيب "خطرة الطيف" و "معيار الاختيار" و "قطع الفلاة". والمفاخرة: مثل مقامة "الافتخار" لعبد المهيمن الحضرمي، و"مفاخرة بين مالقة وسلا" لابن الخطيب، ومقامة " النخلة " للنباهي.

وشكل موضوع الوباء جانبا آخر من تطور المقامات الأندلسية شكلا ومضمونا، ويعد النص الذي بين أيدينا لأبي علي عمر الزجال المالقي من أندر و أطرف ما ألف في الوباء من جنس المقامة في الأندلس، و هي مقامة[1] مؤرخة في ربيع الثاني من سنة 844ه، الموافق ل30 غشت 1440، أنشأها صاحبها الفقيه أبو علي عمر الزجال و أديب الأندلس - كما وصفه المقري - في موضوع الوباء أو بمناسبة الوباء الذي ظهر بغرناطة في تلك الفترة، فهي إذن كتبت قبل نصف قرن من سقوط غرناطة، وتمثل بذلك إحدى النصوص الأدبية الأخيرة التي كتبت إبان الوجود الإسلامي في الأندلس.

منشئ هذه المقامة أبو علي عمر بن علي المالقي من أدباء الأندلس وفقهائها غير المعروفين في كتب التراجم على الرغم من الشهرة التي كان يتمتع بها حينئذ في الأوساط الثقافية الأندلسية، واستفدنا ذلك من خلال قول المقري:"...أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم، و أزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة إلا القليل الذي يسمح في مثله لصاحب القلم، كمقامته التي سماها " تسريح النصال إلى مقاتل الفصال"[2]، و هي المقامة التي نقلها لنا المقري في "نفحه" و "أزهاره"، إلا أن نقلها في " الأزهار" كان مختصَرا حيث حرص على حذف بعض العبارات التي رآها خادشة للحياء، وبخاصة أن سياق المؤلَف كان يفرض

1 - اعتمدت في نص المقامة على ما نشره فرناندو دي لاجرانخا (الشنتمري) في كتابه "مقامات ورسائل أندلسية – نصوص ودراسات ترجمة أبوهمام عبد اللطيف عبد الحليم. ص 135

2 - أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقري التلمساني 116/1 – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1939.

ذلك باعتباره مخصصا للحديث عن شخصية صوفية هي القاضي عياض[1].

ونعته المقري بقوله أيضا:"...وكلام المذكور كثير، ومحله من عذوبة المنطق أثير... وله عدة تآليف أكثرها هزلية؛ وقال أيضا:" وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة"[2].

و يدلنا نص آخر للمقري على شهرة أبي علي و مكانته بين الفقهاء و الأدباء، وقد أورده معلقا على بعض أبيات في مدح أدب أهل الأندلس، يقول : " فإن البلاغة لم تزل شمسها بالأندلس باهرة الإياة، ظاهرة الآيات إلى أن استولى عليها العدو وعطل من أهل الإسلام الرواح إليها والغدو، وفي أهلها بقية لسان ويراعة، وتصرف في فنون الإجادة وبراعة، وقد قصصنا عليك آنفاً الرسالة التي كتبها الملك المخلوع لصاحب المغرب فيما سردناه، واطلعت منها على ما يؤيد ما قلناه من الغرض الذي انتحيناه وأردناه: وقد كان ذلك الكتاب وطبقته تلقفوا كرة البلاغة من يد طبقة أخرى حازت معلى القداح، وتبرجت لها من الفصاحة كل خود رداح، كالفقيه الكاتب أبي عبد الله الشران، المبرز في أدواته على الأنداد والأقران، وكالأديب الشهير الفقيه عمر، الذي لم تزل أخباره إلى الآن سمر..."[3]

كل هذه الشهرة التي كان يتمتع بها صاحبنا في حياته لم تشفع في عثورنا على ترجمة وافية له، فلا نعرف تاريخ ولادته ولا وفاته، و لم يذكر في موسوعات الآداب التي اهتمت بأدب الأندلس، بل كل ما نعرف من الرجل بعضَ أعماله، وقد وصفها معاصره أبو يحيى بن عاصم في الروض الأريض(وهو من القلائل الذين ذكروا الرجل):" صاحبنا الكاتب البارع الخصل، الموهوب النصل، المليء بفنون الأدب نظما ونثرا، وكتبا وشعرا، ومصنوعا ومطبوعا، ومرسلا ومسجوعا، وجدا وهزلا، وتولية وعزلا، لا أعلم أني لقيت بعد الرئيس أبي عبد الله الشران رحمه الله أبرع منه في الكتب والشعر، ولا أقدر منه على النظم والنثر"[4]. وفي نفس الموضع حاول ابن عاصم أن يعقد مقارنة بين أبي علي و أبي عبد الله الشران[5]، فرجح كفة صاحبنا أبي علي لكونه من المشتغلين بالزجل، لذلك كان يسمى أبا علي الزجال، يضيف ابن عاصم موضحا سبب تفضيله إياه:"...إنه أفرغ جهده في أن يتقدمه في المرتبة وأن يظهر عليه في جهده في الخصوصية بهذه المنقبة (يعني الزجل) فحبر الرسائل، و أنشأ الى الروضة النبوية الرسائل، وكتب مغربا في الأساليب الظهائر، واخترع في الكتب السلطاني فنونا خالف فيها الطرق الشهائر، واختلق في التهاني القصائد، وعطف بالقطع الفاذة، والمعاني المعهودة والشاذة"[6].

1 - مقامة تسريح النصال تستهل بمقدمة من النثر المسجوع في اثني عشر سطرا، وبقصيدة نونية من ثمانين بيتا من بحر الطويل، وموضوعها السخرية والاستهزاء.
2 - أزهار الرياض، 1/ 117
3 - نفسه 115/1
4 - انظر مقدمة تحقيق مقالة المقنعة لابن الخطيب ص 30 تحقيق حياة قارة – منشورات دار الأمان، الرباط 2015
5 - أنظر ترجمته في " نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التمبكتي ص533 – طرابلس 2000
6 - مقدمة تحقيق "المقنعة" ص 30

وإننا لنأسف لعدم وصول أغلب أعماله حتى نتبين ما أراد ابن عاصم بقوله عندما استعمل مصطلحات نقدية في غاية القوة، حيث وصف أبا علي بالكاتب المغرب والمخترع المخالف. و لم يصل إلينا من هذا كله إلا القليل من الأعمال منها:-

١- المقامة المذكورة سابقا:" تسريح النصال الى مقاتل الفصال، وتشتمل على نثر وشعر في السخرية والاستهزاء.

٢- مقامة في الوباء: وهي التي بين أيدينا.

٣- فراجة الكرب في مدح العجم والعرب.

٤- زجل في رمل الماية في شجر يسمى في المغرب والأندلس والمغرب "بديدي" أورده الغساني في حديقة الازهار

٥- زجل صبوحي: حققه الدكتور محمد بن شريفة، ونشره في كتاب،" تاريخ الأمثال والازجال في الاندلس والمغرب" .

٦- وله أشعار متفرقة في نفح الطيب و أزهار الرياض.[1]

*** السياق الخارجي للنص**

أنشأ أبو علي عمر الزجال هذه المقامة على لسان مدينته "مالقة" موجهة القول فيها الى " غرناطة" -وهي آنذاك دار الحكم- ليحرض السلطان وحاشيته على الرحيل منها إلى مالقة هربا من الوباء الذي حل بها، وهذا السلطان هو الغالب بأمر الله محمد التاسع الأيسر، المعروف في المصادر القشتالية بالأعسر، ففي العام الذي أرخت فيه/الرسالة 844ه/1440م، كان يحكم هذا الملك للمرة الثالثة، وفي نهاية هذا العام وصلت سفارته الى السلطان المملوكي الظاهر جقمق.

أما عن الوباء الذي ذكر في المقامة فلم نجد له في المصادر أثرا، يقول فرناندو دي لا جرانخا:"...لم أعثر على خبر وباء سنة 1440، فالمصادر المسيحية تتحدث عن وباء تفشى في قشتالة سنة 1437م/841ه، وعن آخر كان في قرطبة سنة 846/1442ه، ربما كان في غرناطة بؤرة صغيرة، أو وصل تحذير الى مسامع صاحبنا الفقيه فاتخذه ذريعة ليكتب هذه المقامة"[2].

قد يكون ما افترضه فرناندو صحيحا باعتبار أن فقيهنا كان شغوفا بمدينته مالقة، يظهر ذلك من خلال الأوصاف التي ساقها في نصه؛ ومهما يكن، فإن جل الدراسات المؤرخة للأوبئة التي تفشت في الأندلس والمغرب تؤكد على أن عام 749ه/1348م، كان سنة طاعون بامتياز، حيث يؤرخ لبداية مرحلة جديدة في تاريخ الطواعين والأوبئة ببلدان الغرب الإسلامي، وكان منشأ لحركات وبائية ارتدادية استمرت حتى القرن 12ه/18م، ومن بينها الوباء المذكور في النص الذي بين أيدينا، يقول أحمد السعداوي:" إن المؤلفات التاريخية التي تحدثت عن القرن 8ه/14م، عادة ما تذكر الطاعون الأعظم وربما أسمته الطاعون الأكبر أو الطاعون الجارف أو الطاعون العام، ولكن المصادر التاريخية المتنوعة لا تتوفر فيها معطيات كثيرة عن هذا الوباء، بل هي تذكره في سياق حديثها عن سائر الأحداث السياسية

[1] - المرجع السابق والصفحة.

2 - أنظر مقامات ورسائل أندلسية – نصوص ودراسات – فرناندو دي لاجرانخا (الشنتمري)، ترجمة وتقديم أبوهمام عبد اللطيف عبد الحليم. المجلس الأعلى للثقافة د.ت صفحة 132

والاجتماعية. وإلى جانب المصادر التاريخية المتنوعة، نجد جملة من المؤلفات كتبت حول الطاعون، هذه المؤلفات التي تؤكد الأهمية التي أصبح يحتلها الطاعون في حياة الناس تقدم معلومات ضافية ودقيقة عن هذا الوباء".[1]

ومن بين المؤلفات التي قاربت الطاعون الجارف نجد "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"[2] ، وهي رسالة لأحمد بن علي بن خاتمة المتوفى سنة 770ه، كما نجد رسالة لابن الخطيب سماها: " مقنعة السائل عن المرض الهائل"[3]، وقد امتاز هذان المؤلفان بالدقة و العلمية في وصف المرض وتقديم العلاج و الاحتياطات الضرورية لتجنب العدوى.

وفي المشرق تصدر للتأليف في "الوباء الجارف" أحمد بن حجر العسقلاني برسالة " بذل الماعون في فضل الطاعون" وكتب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة كتاب " دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة"، وعلى عكس المؤلفين الأندلسيين السابقين فقد ركز هذان المؤلفان الأخيران على الجانب الفقهي مسجلين ما ورد من نصوص دينية كلاسيكية عن الطاعون، فيما بقي الجانب الطبي فقيرا.

ومن خلال جولة في المصادر التاريخية المؤرخة لأحداث القرنين الثامن والتاسع الهجريين، يظهر أن الحركات الوبائية لم تنفك عن الإنباق والانتشار و إن كانت أقل خطورة وفتكا من طاعون 750ه، يقول السعداوي في هذا الشأن " إن الطواعين التي جاءت بعد الطاعون الأعظم كانت عبارة عن استفاقة للوباء الأصلي وهي بذلك أقل فتكا منه، بل إن بعضها كان محليا ذا نتائج محدودة، على أن بعضها الآخر كان كثير الفتك، فطاعون 844ه-1440/847م-1443م، بالإضافة الى عامة الناس" هلك فيه جمع من العلماء و الأعيان..."[4]

ويشتمل نص أبي علي عمر الزجال، على مضامين تجعله نصا مفيدا من الناحية التاريخية، فهو النص الوحيد على حد علمي الذي وثق لنا وجود وباء أصاب غرناطة نهاية النصف الأول من القرن التاسع، ويظهر من خلال وصف أبي علي خطورة هذا الوباء من خلال قوله:" ...وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل، هذا المرض به فاش، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش". والهواء الفاسد حسب النصوص التي وصلتنا هو المحرك الأساسي الذي يسبب انتشار الوباء، نجد ذلك مثلا في:-

١- *تقييد النصيحة*: لأبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الله اللخمي الشقوري، كان حيا سنة 776ه؛ يقول في مقدمته " سببه فساد مبثوث في الهواء المتنفس فيه، فلذلك أمر الأطباء

[1] - المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون – revue de l'institut des belles lettre arabes – 58 eme année1995 N: 175 ص: 124

[2] - يمكن الاطلاع عليها من خلال مؤلف " ثلاث رسائل في الطاعون الجارف" تحقيق محمد حسن – بيت الحكمة – تونس 2013.

[3] - يمكن الاطلاع عليها من خلال المصدر السابق، كما أفردتها بالتحقيق حياة قارة سنة 2015 عن مطبعة الكرامة بالرباط، لكن الظهور الأول لنص "المقنعة" كان في القرن التاسع عشر على يد المستشرق (Muller)سنة 1863 وهي مخطوطة بالأسكوريال تحت رقم 1786

[4] - أحمد السعداوي ص 124

بإصلاح الهواء، وهو من آكد الأشياء، ولا يعرف الهواء والحاجة إليه الكثير من الناس، وإنما يعرفه من يعتريه أمر يضيق نفسه من تعب شديد أو مرض في آلات التنفس، ثم إن هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثر فيها تأثيرا عظيما حسبما شوهد منه".[1]

٢- *المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية*: لأبي الحسن على بن عبد الله بن محمد بن هيدور المتوفى سنة 816ه، وقد نص على أن مقالته تعد نموذجا مختصرا فيما قالته الحكماء ورسمته العلماء في الأمراض الوبائية الكائنة عن فساد الهواء والأغذية: إذ هذا الزمان وقت كيانه، ووفوده و إتيانه".[2]

تمنحنا مقامة أبي علي أيضا نظرة عامة عن بعض الأفكار التي كانت منتشرة آنذاك حول مواسم قوة و ضعف الوباء، حيث كان الاعتقاد سائدا بأن الوباء يضعف في الشتاء و يقوى في الصيف، و أنه شديد الفتك بالصبيان فوق السبع و دون العشر.

*** ملامح حجاجية في مقامة الوباء لأبي علي الزجال**

لقد كان الغرض الإقناعي لمقامة أبي علي حاسما في تركبه من وحدات حجاجية كبرى يمكن إجمالها فيما يلي:-

١- حاول أبو علي في البنية الأولى أن يستميل المخاطب وهو أمير غرناطة عن طريق وصف غرناطة بأوصاف تعظيمية(حمراء الملك، مقر العز ومنعته، مطلع كل قمر نصري، ياسيدتي، ياعدتي...) وعن طريق إظهار العلاقة التي تجمع المرسل (مالقة) والمرسل إليه(غرناطة) وهي علاقة مرؤوس برئيس (من موجبة إحلالها كما يجب، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب، والواقفة عند إشارتها وطاعتها...)، وعن طريق الدعاء لتنمية الشعور بالقوة لدى المخاطب(أبقاها الله على تعاقب الزمان،...أمتعها بحياة الملك الخزرجي اليمان.

٢- في البنية الثانية يستغرب أبو علي من استسلام أهل غرناطة للوباء وانتظار الوباء يظهر ذلك من خلال استخدام فعل التعجب (وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل هذا المرض فيه فاش وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش) وقد أعطى لدلالة التعجب والاستغراب معاني ثانوية ساقها في معرض التساؤل وباستعمال التشبيه والتمثيل.

٣- حاول صاحب النص في البنية الثالثة استخدام أسلوب المناظرة والمثل والاكثار من المعاني المترادفة لإحداث التأثير المطلوب في المخاطب كما استخدم بعض المعلومات المتداولة آنذاك لشدة وقعها في النفوس كاستغلاله للدلالة التأثيرية لمعنى الطفولة في قوله:"...وسمعت يا سيدتي أن هذا السقم أعظم تأثيره إنما هو في قطع الأكباد من صغار الأولاد الذين من فوق السبع ودون العشر، وهم في السنين رياحين القلوب العاطرة النشر، وهذا إلى كتبي لك أعظم داع، فإن الأولاد سوائم والوالد راع..."

لقد بين لنا هذا التقسيم أن أبا علي وزع مضامين مقامته بشكل محكم حيث حرص على تحديد مقصدية خطابه من خلال تسلسلات حجاجية تخدم وجهة واحدة هي إقناع أهل غرناطة بالعدول عن رأيهم والفرار من الوباء والتحاق الأمير بسكنى مدينة أبي علي ومسقط رأسه مالقة.

1 - حياة قارة – مقدمة "المقنعة" ص 22

2 - نفسه ص 24

*** الجدل الفقهي والحجاج بالمثل التاريخي**

تحيلنا مقامة أبي علي إلى ذلك الخلاف الفقهي الذي ما يفتأ أن يظهر عقب كل وباء، وتتجدد النظرة إليه حسب الظروف التاريخية المعيشة، وقد انطلق الجدل فيه منذ أول كارثة وبائية عرفها المسلمون سنة639م، تلك التي عرفت باسم طاعون عمواس، وهو وباء انتشر في بلاد الشام بعد فتح المسلمين، بسبب كثرة عدد القتلى من جنودهم وجنود الروم. وقد تسبب هذا الوباء بمقتل بعض كبار قادة الجيش الإسلامي كمعاذ بن جبل وسهيل بن أبي سفيان وسهيل بن عمرو و آخرون؛ في ذلك الوقت كان الخليفة عمر بن الخطاب قد عزم على الخروج الى الشام، ولكن أمراء الجند استقبلوه على الحدود وأخبروه بأن الأرض سقيمة وأن الوباء فتك بأرواح الناس وطلبوا منه العودة؛ بدأ الانقسام حول هذه الواقعة منذ ذلك الوقت، فقسم رأى ضرورة الرجوع فرارا من الوباء، فيما أصر فريق آخر على البقاء، وكانت النتيجة أن استقر عمر على الرأي القائل بالفرار والعودة الى المدينة، وكان هؤلاء المعارضون يرون عودته فرارا من قدر الله، فأجاب عمر بقولته المشهورة: نعم فرارا من قدر الله الى قدر الله[1].

كان هذا أول خلاف ديني شهده المسلمون حول عدوى الأوبئة، وعلى الرغم من أن السلطة السياسية آنذاك قد حسمته باختيار رأي الفرار، إلا أن الجدل ظل يتجدد منذ ذلك الحين كلما ضرب وباء أرضا من أراضي المسلمين.

في المقامة التي بين أيدينا، يبدو أن السلطة السياسية في غرناطة قد مالت الى الرأي القائل بالبقاء عملا بالحديث الشريف الذي ينهى عن الخروج من أرض ضربها الطاعون الى غيرها، لذلك نجد أبا علي في مقامته على لسان مدينته مالقة يستفرغ الجهد لإقناع غرناطة وضمنيا أميرها بالخروج للاستقرار بها، وهنا نراه يستغل الأحداث التاريخية لإقناع مخاطبه، يقول:".. وسمعت أن حديث السفر لمالقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش وأن الآراء في ذلك اختلفت، ولم يرجع فيها الى سنن تقدمت وعوائد سلفت، والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئا سدى، بل نصبوا على كل طريق الى النجاة علم الهدى، وسمعت يا سيدتي أن القضية عول فيها على الاستسلام، وخولف فيها رأي الخليفة الرشيد لما تحول في مثلها عن سكنى دار السلام، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام".

لقد استدعى أبو علي الأحداث التاريخية المشابهة للتدليل على صحة موقفه ونقض موقف أهل غرناطة، لذلك أثبت واقعة عمواس وما تحمل من دلالات دينية شرعية، وهو ما يندرج في ما يسمى "الحجاج بالمثل، يقول الدكتور محمد العمري في هذا الإطار:" يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء من المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي، والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية أحديهما بالنظر الى نهاية مماثلتها"[2]

إن قوة المثل الذي أتى به أبو علي للاحتجاج على صحة الرأي القائل بالفرار من الوباء يأتي من قوة مكوناته، وذِكر أبي علي لهذه المكونات مجردة عوض نقل الحكاية كاملة استدعته طب يعة التركيب اللغوي المقامي، ومكوناته هي:-

[1] - ينظر في هذا الإطار محمد السيد الوكيل في كتابه " جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين"

[2] - " في بلاغة الخطاب الإقناعي" ص 82 – إفريقيا الشرق – ط2 بيروت 2002.

١- الخليفة الرشيد: استعاض به عن ذكر اسمه عمر بن الخطاب لتقوية الموقف، فالأمر يتعلق بوارث النبي الذي يمتلك القوة الدينية والقانونية والسلطة السياسية.

٢- أركان الدين وأعلام الإسلام: واستعاض به عن ذكر صفة " الصحابة "، إشارة منه الى حصول الإجماع (وإن لم يكن قد تحصل حقيقة)، وكذا التواتر الذي يضمن سيرورة الحجة.

٣- الواقعة المشابهة: وأشار إليهما بقوله " في مثلها الى دار السلام" أي في مثل الواقعة الحاضرة اليوم، والاستعاضة عن التعبير بدار السلام عن " القدس" أو " إيلياء" للاستفادة حجاجيا من الوسم الدال على الأفضلية، فكان قوله ضمنيا: فضل عمر بن الخطاب مضاعفة الجهد والتعرض لخطر السفر المتكرر على الاستقرار بمدينة السلام حيث السكون والراحة حفاظا على الحياة وإنقاذا للأرواح، ولعل هذه النتيجة مشابهة لحال أمير غرناطة.

ونظرا لكون رأي أهل غرناطة كان مؤسسا على حديث نبوي، فكان توسله هذه المرة بأقوال الفقهاء المستنبطة من فعل الصحابة يقول:" وقال لي يا سيدتي إنك وقفت مع الحديث المنصوص، الوارد في مثل هذا المرض على الخصوص، وفيه النهي عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه، والحديث صحيح، والرشد فيه قول صريح، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد في كتابه الجامع في البيان والتحصيل، والاتفاق من الجميع أن النهي في هذا الحديث ليس بنهي تحريم، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم، فلا إثم ولا حرج على من قام ولا على من خرج، وقال عمرو بن العاص: الأفضل الخروج لأهل الفطنة، اتقاء من اعتقاد يؤدي الى فتنة، وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصارا، والكلام كثير ولكني اختصرته اختصارا، وان نظرا قدمه كثير من الصحابة ورجحه، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه".

لقد استشهد أهل غرناطة بالحديث الدال على عدم الفرار من الوباء، وهي حجة قوية تدعم طرحهم، حيث لا يسع أبا علي إلا الانصياع لها، لكن هذا الأخير ولكي يدعم موقفه استخدم استراتيجية تعتمد المناورة: فهو في مرحلة أولى اعترف بوجود الحديث و وصحته، وفي مرحلة ثانية استخدم تجربته الفقهية للغوص في باطنه من خلال استدعاء أقوال الفقهاء المتقدمين، فكان الاعتماد هنا على:-

١- الآراء التي ذكرها ابن رشد في "الجامع في البيان والتحصيل".

٢- رأي عمرو بن العاص الذي ذهب الى جواز الخروج من المكان الموبوء.

لقد حاول أبو علي الاحتجاج بالشواهد القائمة على القياس هنا لإثبات قاعدة ثابتة مرتبطة لدى العامة والخاصة بحمولة قدسية وتاريخية، وقد أشار الى مثل ذلك بيرلمان حين قال:" أن يحاجج المرء بواسطة الشاهد معناه افتراض وجود انتظام أو إطراء لما يوفر الشاهد تجسيدا له، فهو يسعى الى إثبات قاعدة، إذ يبحث انطلاقا من حالة خاصة عن

القانون أو البنية التي تكشف عنها هذه الحالة"[1]. ومن هنا فالشاهد يشكل ركيزة أساسية في البنية الحجاجية لمقامة أبي علي لما يحويه من قدرة فائقة على التأثير في نفس المتلقي، كما أنه في السياق الذي اتخذه هذا النص فهو مطلوب ومحبوب من المستمع.

*** حجاجيـــة الصـــور التشبيـــــهيـــة**

وكما استعمل أبو علي الشواهد الدينية التاريخية لإقناع أهل غرناطة للعدول عن موقفهم من الوباء وانتقالهم إلى مدينة مالقة، استعمل كذلك الصور التشبيهية واستغلال قدرتها على الاستمالة والتأثير في المخاطبين، وهو ما أكد الجرجاني على فاعليته بقوله:" التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية الى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها....فإذا كان مدحا، كان أبهى وأفخم...، وإذا كان حجاجا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر وبيانه أبهر"[2].

كما رأى "بيرلمان" أن التمثيل مهم في الحجاج، فهو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة"[3].

لقد اعتمد أبو علي في مقامته على المجال الحسي في انتزاع الصور التشبيهية، وذلك لقربها من فكر المخاطب، ووقعها السريع في الإدراك، فيكون التأثير بها أكثر والإقناع أنجع، وقد استخدم في ذلك مجالات وحقولا متنوعة، فنجده يشبه الوباء بالأسد، وبالسيل المتدفق وبالعدو المغير، وبالسهام وبالزلازل والخسف، ولنترك أبا علي يتحدث عن ذلك بقوله:"...أما واجب التسليم لتقدير العزيز العليم، فمتأكد شرعا، لا يضيق به المؤمن ذرعا لكن ما يفعل المستسلم بالروح وبالجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد..."، لقد اتخذ أبو علي من عالم الحيوان مادة يستقي منها صورا بلاغية غاية في القوة الحجاجية، فاستغل رمزيتها ليكشف عن قناع المعنى المراد، ويجعل المتلقي يدرك الفكرة بيسر وسهولة، وهو هنا يتعجب من الاستهتار الذي أخذ بعقول أهل غرناطة، فلم يلقوا بالا للخطر المحدق بهم، تغافلا منهم، فقدم تشبيه التمثيل بوصفه حجة لما ذهب إليه، وتتكون الصورة التشبيهية من الوباء كمشبه والأسد كمشبه به ووجه الشبه الذي هو شدة الفتك، وحتى يكون الاقناع أقوى فقد أعطى لذلك التمثيل حركية وسرعة تمثلت في قوله:"...وقد أبصره مقبلا إليه، أو منقضا عليه، أيأخذ في تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه". فالصورة هنا تصبح مكتملة بإضافة عنصر آخر الى وجه العلاقة بين الوباء والأسد زيادة على الفتك وهو السرعة في إنجاز فعل

[1] - نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان – الحسين بنو هاشم ص 83 – بيروت 2014

[2] - أسرار البلاغة في علم البيان أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني - تحقيق عبد الحميد هنداوي - دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م - ص 85

[3] - عن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إنجاز: فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمَّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية منوبة، تونس، ص: 342 .

القتل، فحقق التمثيل غايته الإقناعية المضمنة في الصورة وهي: يجب الخروج من غرناطة خوفا من الوباء وعلى وجه السرعة، ويمكن التمثيل حجاجيا لذلك كما يلي:-

في مثال آخر استغل صاحب المقامة معجم الكوارث الطبيعية لبعث هاجس الخوف لدى المخاطب، فقدم صورة تمثيلية أخرى تصور حالة السيل في ظلام الليل وقد أقبل مدمرا كل ما يجد في طريقه وأوشك أن يغرق من لم يرتفع إلى أعالي الجبال، ويبقى التمثيل الحجاجي في هذا المثال نفسه مع الصورة المشبهة المقدرة نفسها، لكن بوجه شبه يصور منظر الغرق في الظلمة.

استغل صاحب النص أيضا المعجم الحربي ليصور لنا منظرا آخر يملأه الموت من خلال قوله:" ومن نودي هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة بالجبال مستجيرة، فارفع غنمك قبل الاكتساح، فالوقت في انفساح أيتركها تسرح، ولا يبرح، أم يرفعها لتسلم، مما تدرب وتعلم؟" فالصورة هنا توضح منظر الراعي وقد حُذر من خيل مغيرة فيعمل جهده لتسلم من الغارة، كنتيجة منطقية وهو الهدف المتوخى، أو يستسلم للمغيرين ويعرض ماشيته للخطر وهي النتيجة التي يحذر منها المخاطب، رابطا بشكل ضمني علاقة تشبيهية بين حال المستسلم للغارة المعرض ماشيته للخطر وبين فقهاء غرناطة وحكامها المعرضين رعيتهم لفتك الوباء.

لقد عمد صاحب النص إلى جعل المتلقي يستدعي صورا متعددة للموت من افتراس وغرق وقتل وخسف لاستدعاء الشعور بالخوف لدى المخاطب، معتمدا على رسوخ تلك الصور في ذهن المتلقي ليقوده الى التسليم بالغاية المضمرة خلف الخطاب.

*** حرف(إلى) الدال على الغاية المكانية**

الابتداء ب(إلى) التي تفيد المآل المكاني له قوة حجاجية من حيث الاعتناء بالمتلقي وإعطاءه أولوية الذكر، وتهييئه لتلقي الطلب بالاهتمام اللازم الذي يأمله المرسِل، ولاشك أن شد المتلقي ومداعبة أحاسيسه هي استراتيجيات خطابية تستبطن نفسية المتلقي، وهكذا حرص صاحب المقامة على الظهور بمظهر القريب من المرسل إليه، العليم بأحواله المشفق من الضرر الذي سيلحق به، وذلك بالشروع بحرف الغاية المكانية (إلى) عوض حرف ابتداء الغاية(من) الذي لا يظهر إلا مع السطر الثالث، فكان أن صاغ أبو علي بداية المقامة كما يلي:" إلى حمراء الملك وقلعته، ومقر العز ومنعته، ومطلع كل قمر نصري يخجل الأقمار بطلعته، أبقاها الله تعالى على تعاقب الزمان، منزل أمان ودار إيمان، وأمتعها بحياة الملك الخزرجي اليمان، من موجبة إجلالها كما يجب، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب"، ونلاحظ أن أبا علي حاول استقطاب أمير غرناطة من خلال استعمال أسلوب الدعاء (أبقاها الله على تعاقب الزمان...وأمتعها بحياة الملك الخزرجي اليمان). هكذا رأينا أن ابتداء أبي علي بحرف (إلى) الدال على الغاية المكانية (غرناطة وأميرها) كان بهدف:-

١- تنبيه المخاطب (المحاجج) وتهييئه لتلقي الطلب.

٢- تفضيله على المخاطب (المحاجج)، من خلال الابتداء به.

٣- استقطاب المرسل إليه باستغلال المساحة اللغوية بين حرفي الغاية (إلى) وابتداء الغاية (من) في المدح والدعاء.

*** حجاجية الأفعال الكلامية (التوجيهية)**

يقصد بالأفعال الكلامية ، تلك القدرة التي تحول المعطيات الفكرية والمدركات الذهنية إلى هيئات كلامية تؤدى

بسلوك لغوي يتمثل في الأنماط الخطابية المختلفة في الاستعمال اليومي للغة الطبيعية، أو هي مجموعة من الوحدات الصغرى التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...)، غايته تغيير حال المخاطبين.[1] وهو ما يتساوق مع قول مالينوفسكي:" إن اللغة وسيلة من وسائل الفعل وليست أداة للتأمل"[2] ويعود استعمال مصطلح (الفعل الكلامي) الى الألماني (بوهلر)، الذي أراد به العملية النفسية لإنتاج الكلام، ثم جاء الفيلسوف (أوستن) وألّف كتابه (كيف ننجز الأفعال بالكلمات) سنة 1962 ، ليضيف الى هذا المصطلح معنى الأداء الفعلي والإنجازي للكلام، فغدا مؤسس هذه النظرية التي طورها بعده تلميذه (سيرل)[3].

قسم (سيرل) الأفعال الكلامية إلى:-

١- الأفعال الإخبارية أو التمثيلية (**Assertives représentatives**): وتبين معتقد المتكلم وما يقره عن طريق الإخبار، وتمثل هذه الأفعال جمل الإثبات والنفي والحقيقة والوصف.

٢- الأفعال التوجيهية (**Directives**): وتهدف الى جعل الواقع مطابقا للكلمات عبر المتلقي، وتظهر من خلالها نية المتكلم في التأثير في المخاطب وتوجيهه ليقوم بفعل ما.

٣- الأفعال الإلزامية(**Commissives**): وتعبر عن التزام المتكلم بأداء فعل مستقبلي بجعل العالم يوائم الكلام عبر المتكلم نفسه، ويشمل هذا القسم أفعال الوعد والوعيد والتعهد والقسم.

٤- الأفعال التعبيرية(**Expressives**): وتعبر عما يشعر به المتكلم من الأحاسيس والمشاعر والانفعالات، ويدخل فيها الأفعال الدالة على الفرح والحزن والخوف والتأسف والتعجب.

٥- الأفعال الإعلانية(**Declaratives**): وتكشف عن تغييرات في نمط الأحداث العرفية المعتمدة على طقوس اجتماعية أو قرارات مؤسساتية تمثلها أفعال الشعائر والأحكام والقرارات واعلان الحروب وغير ذلك[4].

*** النـــــــــــداء**

لقد استغل أبو علي الإمكانيات التعبيرية التي تمنحها اللغة في استمالة المخاطب والتأثير فيه والاجتهاد في إقناعه، وتعد الأفعال التوجيهية من وسائل التعبير التي توفر قوة حجاجية فعالة خاصة اذا اقترنت بالتهديد الضمني بالموت واستغلال هاجس الخوف من الوباء، وهكذا نجده يوظف الفعل التوجيهي (النداء) في ثمانية مواضع ليستقطب المقاصد

---

[1] - المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو ترجمة محمد يحياتن ص7 – منشورات الاختلاف ط1 الجزائر 2008

2 - أنظر "التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي لمسعود صحراوي دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 2005

[3] - للتوسع في الموضوع يرجى الاطلاع على كتاب " انفتاح النسق اللساني دراسة في التداخل الاختصاصي" لمحسب محي الدين ص 23 – دار الكتاب – بيروت 2008

[4] - لمزيد من التوضيح والبيان حول أقسام الأفعال الكلامية، يرجى الاطلاع على مقال " الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو" ضمن كتاب " التداوليات علم استعمال اللغة" ط2، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع بيروت 2014، ص 89.

المتنوعة للنمط الخطابي الواحد، وأسلوب النداء من أقدر الأنماط الخطابية على تحمل المقاصد المتعددة، ونجد أبا علي يلتمس ذلك من خلال قوله مثلا: "كتبته إليك يا سيدتي عن نفس قلقة، ساهرة أرقة، حاذرة مشفقة، ملهبة بل محترقة..." حيث يلاحظ أنه على الرغم من التزام الفعل القولي والقضوي بمعيارهما اللغوي، وهو تنبيه المخاطب بالنداء، غير أن فعله الإنجازي قد تجاوز الدلالة الحرفية وحصل على مدلول استلزامي منوط بالسياق التداولي، وهو دلالة الاحتجاج المقرون بالحزن والتحسر، ما يجعله داخلا في صنف الفعل الكلامي التوجيهي غير المباشر، ويعضد ما ذهبت إليه السياق التداولي الذي جاء ضمنه النص، حيث احتجاج صاحب النص المضمن في النداء جاء عن عدم هروب أمير غرناطة من الوباء وبقاءه في معقل حكمه على الرغم من انتشاره في تلك المناطق، كما يعضده السياق الداخلي للنص من خلال ظهوره (أي الاحتجاج والتحسر) بشكل مباشر وباستعمال نفس الفعل التوجيهي (النداء)، ونجد ذلك من خلال قوله:" وسمعت يا سيدتي أن القضية عول فيها على المقام والاستسلام وخولف فيها رأي الخليفة الرشيد لما تحول في مثلها عن سكنى دار السلام، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام". هكذا نرى أنه على الرغم من استعمال أبي علي للمنادى الدال على التفخيم (سيدتي) الذي يقتضي مراعاة المقام في الخطاب إلا أن الدلالة الاستلزامية التي تم استنباطها من خلال السياق كانت حاسمة في التدليل على المعنى الثاوي في الفعل التوجيهي الندائي وهو الاحتجاج عوض الدعاء أو الطلب أو التودد.

من خلال مثالين آخرين تظهر الدلالة الاحتجاجية واضحة شيئا فشيئا مع استعمال الجمل الاعتراضية المستخدمة لوصف حال المخاطب، ومن ذلك قوله:" وقد كنت يا سيدتي أرتجي أن يكون لهذا المرض ارتفاع، أو يحصل بدخول البرد انتفاع، فتركت الكتب منتظرة لذلك، إلى أن تزايد الحال – وأنت على حالك–، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك" وقوله:" يا سيدتي الحمراء سألتك فأخبريني، وإن تحير فهمي فاعذريني...".

لقد استغل أبو علي القوة التنبيهية للنداء واستدعاء انتباه المنادى (غرناطة وبشكل غير مباشر أميرها) ليوجه انتقادا ضمنيا يفهم من خلال السياق التداولي.

*** الاستفهام الحجاجي**

مما يؤكد على موقف كاتب النص المبطن من آراء أهل غرناطة اعتماده على أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يساعد على تقويض الرأي المخالف، بل قد تكون قوته تفوق مجرد دحض الرأي إلى التكذيب والتوبيخ، يقول فضل حسان:" والاستفهام الإنكاري قسمان كذلك تكذيبي وتوبيخي لأنك حينما تنكر من شخص أمرا ما، فإما أن يكون هذا الأمر قد ادعاه لنفسه، وليس ذلك صحيحا، فأنت تكذبه فيما ادعى، وإما أن تنكر عليه قولا قاله، أو عملا عمله، ولم يكن ينبغي له ذلك، فأنت توبخه على ما صدر منه، وكل من التكذيبي والتوبيخي، إما أن يكون على أمر قد مضى، أو على أمر في الحال، فالأقسام أربعة: تكذيب لأمر مضى، وتكذيب لأمر في الحال أو في الاستقبال، وكذلك التوبيخي."[1]

[1] - البلاغة فنونها وأفنانها، ص 194 – دار الفرقان، ط4، 1974

لقد عدل أبو علي عن النقد المباشر لرأي أهل غرناطة إلى الاستفهام الإنكاري، لأن حجاجيته في الإبطال أشد وأوقع، وذلك لقيمته التواصلية التي تفرض تفاعلا مباشرا مع المخاطب، وتأكيدا لقوة رأي المخاطب؛ وبقدر ما يدل على ثقة من المتكلم بنفسه فيما قاله، يدل على إحراج المخاطَب، لأننا في أسلوب الاستفهام نترقب جوابا، ولا نجد ذلك في أسلوب النفي المباشر، اذ باستطاعة المخاطب أن يفر من الجواب ويصمت.

يقول أبو علي في معرض انتقاده الرأي القائل بالاستسلام للوباء وعدم الفرار منه:"... أما واجب التسليم لتقدير العزيز العليم، فمتأكد شرعا، لا يضيق به المؤمن ذرعا، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد، وقد أبصره مقبلا إليه، أو منقضا عليه أيأخذ في تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟ ومن قيل له في ظلم الليل ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل، أينام في مكانه، أم يبادر الى السلامة بجهد إمكانه؟، ومن نودي: هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة بالجبال مستجيرة، فارفع غنمك قبل الاكتساح فالوقت في انفساح، أيتركها تسرح، ولا يبرح، أم يرفعها لتسلم، مما تدرب وتعلم؟، وكذلك إذا قامت الرعاة صفوفا، وأصابت سهامها في الخلق ألوفا، أيرجح الحق تباعدا أم وقوفا؟ وكذلك أيضا المنازل التي تدوم بها الزلازل، فأرضها في كل يوم تميد، ودهش القلوب بها حاضر عتيد، والخسف بها في كل يوم ينقص وفي يوم يزيد، لا تسمع فيها إلا سقوط جدار على ركن دار، وانفكاك الأركان على السكان، وإخراج ميت من تحت بيت، وسقوط سارية على جارية، أيعزم على السكنى والاستيطان، تحت هذه الحيطان، أم يأخذ بالخروج بالأطفال والعيال؟".

لقد استغل صاحب النص القوة الحجاجية للاستفهام الإنكاري من أجل فرض سيطرته على المحاجج والتحكم بالمسار الحجاجي، وتوجيه دفة الخطاب بالشكل الذي يريده دون إبداء أي اعتراض من الآخر، وقد عمد الى التكثيف من تلك الأسئلة والإكثار من صورها حتى يتمكن من محاصرة المخاطب، لذلك يعد هذا النوع من الأفعال اللغوية أنجح الأساليب في تحقيق الحجاج إضافة الى ما يتيحه من إمكانيات تأويلية ، لذلك يسميه "ديكرو" بالاستفهام الحجاجي، ويعرفه بكونه:" نمط من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله، انطلاقا من قيمته الحجاجية."[1]

ابتدأ صاحب المقامة مجموعة الأسئلة الحجاجية بحرف الاستدراك "لكن"، وهو من الروابط الحجاجية التي تعمل على إيراد الحجج وسوقها والربط بين الحجج المتعارضة، ثم أورد عدة استفهامات تتضمن صورا حجاجية اعتمادا على أقيسة خطابية[2]، فقوله مثل: "ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد، وقد أبصره مقبلا إليه، أو منقضا عليه، أيأخذ في تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟" ، يتضمن استفهاما حجاجيا ينجز معنى التخويف والتهديد، ويمكن ترتيب وجهته الحجاجية كالتالي:-

أ- الوباء مثل الأسد.

ب- يجب الهروب من الأسد المفترس.

[1] - الخطاب والحجاج أبو بكر العزاوي، ص 57، بيروت 2010

[2] - حول الأقيسة الخطابية، أنظر " في بلاغة الخطاب الإقناعي " محمد العمري، ص73 – ط2 – إفريقيا الشرق 2002.

ج- يتعين الهروب من الوباء.

حيث يشكل المعطى (أ) الصورة المرجعية التي تعد الإطار الحاكم للقياس الذي استعمل صاحب النص، وهو إطار يتوصل إليه من خلال السياق الداخلي للنص بمساعدة الرابط الحجاجي "لكن"، الذي صدر بها الأسئلة الحجاجية.

مثال آخر من هذه الاستفهامات الحجاجية أوردها صاحب النص في قوله:"...ومن قيل له في ظلم الليل ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل، أينام في مكانه، أم يبادر الى السلامة بجهد امكانه؟" حيث يوظف الطاقة الحجاجية الكامنة في إنجاز فعل التعجب من خلال إيراد صورة حجاجية نوردها كالآتي: "يجب على من أدركه الوباء في بلد أن يفر الى بلد آخر كما يفر صاحب السيل إلى أعالي الجبال"، وهكذا نجده يوظف الاستفهام الحجاجي الذي ينجز تارة فعل التخويف وتارة أخرى فعل التعجب والاستغراب لإقناع المخاطب بخطورة الحالة والابتعاد عن أمكنة الوباء.

وقد استغل أبو علي القوة الحجاجية للهمزة الاستفهامية مع "أم" الدالة على التعيين للتخيير بين صورتين، تمثل الأولى النجاة فيما تمثل الثانية الهلاك، ويظهر ذلك من خلال قوله:" ...إذا قامت الرماة صفوفا، وأصابت سهامها في الخلق ألوفا، أيرجح الحق تباعدا أم وقوفا"، فهنا اختيار بين صورة المستسلم الذي يبقى واقفا رغم خطر الإصابة بالسهام وبين المبتعد الفار الناجي منها، ولا شك أن محاصرة المخاطب بتعيين الاختيار السليم سيجعل من الصورة الحجاجية ناجعة في الوصول الى الهدف، ونجده في مثال آخر يضع المحاجَج في وضعية المتخير بين هلاك الماشية ونجاتها من خلال سؤاله:" أيتركها تسرح، ولا يبرح، أم يرفعها لتسلم مما تدرب وتعلم؟.

*** أسلوب الأمر**

لأفعال الأمر وظيفة حجاجية قوية، تتمثل في كونها موجهة لأجل حصول الفعل، فالغرض منها إنجازي نفعي، ذلك أن الأمر يستمد شرعيته وقوته من الشخص الآمر، وليس من ذات الصيغة، ولهذا يتحول الأمر الى معنى الترجي والنهي الى معنى الدعاء، حيث لا يكون الآمر مؤهلا بقوته الذاتية لإصدار الأمر[1]، وهو ما ينطبق على أفعال الأمر المستعملة في المقامة، فجلها بمعنى الترجي، وقد استعملها أبو علي في ثلاثة مواضع تباينت فيها حجاجية الفعل الإنجازي قوة وضعفا هي كالتالي:-

١- أمر مشفوع بقسم، يقول مخاطبا غرناطة:"...وإني أقسم عليك بالرب الذي كرمك بالعز وشرفك، وعرفك من لطائف الفرج بعد الشده ما عرفك أن تسعديني على تسكين لوعتي وتأمين روعتي وتراجع رقادي بعد سهادي، وقضاء حاجة جلت في فؤادي، وتفهمي مراد إشارتي وإشارة مرادي، وتتركي هوى النفس الذي هو للحق معاند، وللرشد معادي". لقد استعمل صاحب المقامة القسم هنا ليقوي المعنى في الطلب (تسعديني ـــ تفهمي ـــ تتركي) وتأكيد المعنى في ذهن المتلقي ودفعه للاستجابة.

٢- أمر مرتبط بالشرط، ونجد في قوله:" يا سيدتي الحمراء سألتك فأخبريني وإن تحير فهمي فاعذريني" وقد استغل أبو

[1] - عن "بلاغة النص النثري"، إشراف محمد مشبال – دار العين للنشر، الإسكندرية 2013، ص191

علي أسلوب الشرط ليزيد من درجة انتباه المخاطب وإحراجه للرد على الأسئلة الحجاجية التي سبقت الإشارة إليها.

وتبقى أقوى أفعال الأمر في النص تلك التي استخدمت أثناء استخدام القياس الخطابي المشار إليه في النص السابق[1]، وهي كالتالي:-

١- إذا قيل له اهرب من الأسد.

٢- ومن قيل له في ظلم الليل: ارتفع عن هذا المكان.

٣- ومن نودي هذه الخيل قد طلعت مغيرة فارفع غنمك .

فقوة هذه الأفعال تأتي قوتها الإنجازية من قوة القياس المستخدم للإقناع، وكذا من قوة قائلها المبني للمجهول وما هو في الحقيقة إلا صوت المنطق والعقل.

*** الروابط الحجاجية**

تعد الروابط الحجاجية مظهرا أساسيا على أن الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها، بل تعد الدفة التي يتم بواسطتها توجيه الحجاج وتنظيمه وتحديد الوجهة الحجاجية، ذلك أن القول المضمن في الخطاب والذي يفرض نوعا من النتائج دون غيرها تبعا للمقام لا يصلح أن يكون حجة دون تحديد الوجهة الحجاجية، ومأتى هذه الوجهة الحجاجية هو المكونات اللغوية المختلفة للجملة التي توسع أو تضيق من الاحتمالات الحجاجية[2].

الروابط الحجاجية كما عرفها الدكتور أبو بكر العزاوي تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر)، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. وقد ميز بين أنواع عديدة من الروابط كما يلي:-

أ- الروابط المدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع، ذلك، لأن...) والروابط المدرجة للنتائج (إذن، لهذا، وبالتالي...).

ب- الروابط التي تدرج حججا قوية (حتى، بل، لكن، لاسيما...) والروابط التي تدرج حججا ضعيفة.

ج- روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك...) وروابط التساوق الحجاجي (حتى، لاسيما...).[3]

يمكن التمييز في مقامة أبي علي بين روابط نحوية تؤدي وظيفة التناظر الحجاجي، وبين روابط حجاجية تؤدي وظيفة التعارض، ويمكن التمثيل للأولى بحرف(الواو)، والثانية بالحرف (لكن)، ولكي يحقق النص الوظيفة الإقناعية المرجوة فقد استعمل هذين الرابطين الحجاجيين اللذين يزيدان من تماسك النص ويقويا مساره الحجاجي لخدمة نتائج معينة.

لقد استعمل الرابط (و) للجمع بين الحجج والربط بين معانيها، وبالتالي تقوية وظيفتها الإقناعية وكذا تتابع الربط الحجاجي الذي يسهم في بناء هيكلة النص وضبط منهجه بربط المقدمات بالنتائج، ومن أمثلة ذلك قول أبي علي:" إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والروض الذي يطيب به المقيل، والراحة التي تمتزج بالأرواح كما قيل"، ونلاحظ بوضوح ترتيب الحجج ثم النتيجة ، فالحجة الأولى والتي تفيد (حسن جو مدينة مالقة)، والحجة الثانية التي تفيد (جمال الطبيعة) تؤديان لا محالة إلى نتيجة (تحقق الراحة للأشباح والأرواح لمن

[1] - أنظر صفحة 17 من هذا البحث

[2] - ينظر "نظرية الحجاج في اللغة" ضمن كتاب " أهم نظريات الحجاج في التقالي الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، د.ت صص: 375-376.

[3] - اللغة والحجاج ص 30

زار مالقة واستقر بها)، وكان هذا هدف صاحب النص، فالحجج هنا جاءت متناسقة بفضل الرابط الحجاجي (الواو) للتدليل على أفضلية "مالقة" على "غرناطة" وأحقيتها بسكنى الأمير؛ و في موضع آخر نرى صاحب النص يستعمل الواو للتنصيص على الحجة الدامغة أمام سخافة موقف المحاجج، ونجد ذلك مثلا في قوله:" وسمعت أن حديث السفر لمالقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش، وأن الآراء في ذلك اختلفت، و لم يرجع فيها إلى سنن تقدمت وعوائد سلفت، والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئا سدى، بل نصبو على كل طريق إلى النجاة علم هدى".

فالرابط الحجاجي (الواو) قام بوصل الحجج وترتيبها للتنصيص على النتيجة الضمنية والتي هي ضحالة رأي أهل غرناطة القائم على هوى النفس واتباع الخلاف.

١- عدم السفر إلى مالقة (واو العطف رابط حجاجي)

ح2: اتباع الآراء المختلفة (رابط حجاجي ثاني) ن: عدم الاهتداء بالسلف الصالح

فالحجة (1) والحجة (2) تؤدي لا محالة الى عدم اتباع السلف من المؤمنين الأوائل، الذي يقوي النتيجة الضمنية المتمثلة في عدم الاهتداء والخسران.

و استعمل أبو علي الرابط الحجاجي (لكن) الذي يعد من أكثر الروابط قوة أثناء إدراج الحجج تأكيدا أو تعارضا، وتفيد معنى الاستدراك، يقول عبد الهادي الشهري في كتابه استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية: "...وهو حرف استدراك ومعنى الاستدراك أن تنسب حكما لاسمها، يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لما أخبرت عن الأول بخبر، خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره، إن سلبا أو ايجابا، ولذلك لا يكون الا بعد كلام ملفوظ به أو مقدر..."[1] ويفرق أبو بكر العزاوي بين نوعين من الربط تنجزه الأداة (لكن) بقوله:" إن التلفظ بأقوال من نمط (أ) لكن (ب) يستلزم أمرين اثنين:-

١- أن المتكلم يقدم (أ) و (ب) باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة (ن) والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها أي (لا- ن).

٢- أن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته.

يتجلى اعتماد أبي على الرابط الحجاجي (لكن) في دحض حجج الخصم وتقرير نتيجة عكسية، ونجد ذلك مثلا في قوله: "...وقال لي يا سيدتي إنك وقفت مع الحديث المنصوص، الوارد في مثل هذا المرض على الخصوص وفي النهي عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه، والحديث صحيح والرشد فيه قول صريح، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل". ففي هذا المثال استُغلت القوة الحجاجية للرابط (لكن) لمعارضة الحجة القائلة بالاستسلام للوباء، المتكئة على حديث صحيح، وعلى الرغم من كون أبي علي قد أقر الدليل الحديثي من حيث وروده، إلا أنه اعترض على طبيعة التأويل الذي اتخذه أصحاب الحجة الأولى الذين جمدوا على ظاهر الحديث دون تبين مقاصده، وهنا يثبت اعتراضه باستخدام (لكن) ويقرر حجة مغايرة.

[1] - ص 509، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا 2004.

وفي إطار استراتيجية الاقناع التي اعتمدها صاحب المقامة للتأثير في أهل غرناطة وإظهار مميزات مدينة مالقة وجعلها ملجأ للهاربين من الوباء، عمل على إبطال حجة من يفضل غرناطة ويؤثرها من خلال قوله:" وبلغني أنك قلت: مالقة ليس بها زرع، وبقليل المقام يضيق لها صدر وضرع، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع، وعز علي هذا الكلام، ولكنني سلمت والسلام، فإن سعري عن سعرغرناطة منحط، وفي لمحة بصر يضيق مني بالطعام في كثير من الأيام ساحل وشط، ولا يعلم أنه دامت لي شدة قط، لي في الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة عام..." لقد تموقع الرابط الحجاجي (لكن) بين الحجة وضد الحجة، حيث لدينا حجتين يخدمان نتيجتين متناقضتين، فالحجة الأولى تثبت قلة زرع مالقة، وضعف إنتاجها، وتخدم نتيجة ضمنية مفادها أن مالقة غير مؤهلة لسكنى الأمير، أما الحجة الثانية بعد(لكن) فتثبت أن مالقة رخيصة الأسعار، معتصمة بالله ومتوكلة عليه وتخدم نتيجة ضمنية مفادها أن مالقة صالحة ومؤهلة لسكنى الأمير.

لقد خلصنا من خلال الإشارة إلى بعض الروابط الحجاجية المستعملة في المقامة إلى أنها ساهمت في حجاجية النص، وسهلت تلقي الخطاب والإقناع به، وعملت على وصل الحجج بالنتائج دحضا ومعارضة باستعمال الرابط (لكن) وتثبيتا وتقريرا باستعمال الرابط (الواو)، وكذلك ساعدت على تشكيل البنية الحجاجية للنص وتكامله وانسجامه.

*** خـــــــــــــــــــــــاتـــــــــــــــــــــــامة**

لقد كان زمن كورونا مناسبة مواتية لطرح سؤال لطالما رددناه –ونحن محجور علينا– كيف عاش أجدادنا مثل هذه الجوائح؟ كيف عبروا عن أنفاسهم التي كانوا يحصونها بشغف وهم في محبسهم الجبري الذي فرضته الجائحة؟ كيف عبرت النخبة عن خوفها وهلعها وهي ترى الموت ينشر صوره المرعبة في كل مكان؟

لقد رأينا من خلال مقاربة مقامة أبي علي الزجال كيف استغل هذا الأخير الخوف الجمعي للمجتمع الأندلسي من الوباء من جراء تواتره ليطالب أمير غرناطة بالانتقال الى مالقة مستخدما استراتيجية حجاجية وظفت المثل التاريخي والوقائع المشابهة عن طريق الصور القائمة على القياس و المشابهة، وحجاجية أساليب النداء والأمر والاستفهام والروابط الحجاجية ليصل إلى هدفه الإقناعي، لذلك تعد هذه المقامة نصا حجاجيا بامتياز، وهو بذلك نص واعد يتحمل مقاربات حجاجية أكثر عمقا ستفتح لا محالة إمكانات تأويلية ذات أفق أرحب، حيث يمكن في هذا الإطار دراسته من مداخل أخرى كترتيب أجزاء القول و مراعاة المقام و المناظرة و غيرها وقد وجدت ملامح عديدة لتلك المظاهر الحجاجية تؤذن و لا شك بدراسات أخرى مستقبلية .

*** المراجع**

أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقري التلمساني – لجنة التأليف و الترجمة و النشر – القاهرة 1939.

استراتيجيات الخطاب عبد الهادي الشهري ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا 2004.

أسرار البلاغة فى علم البيان لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني – تحقيق عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م

انفتاح النسق اللساني دراسة في التداخل الاختصاصي" لمحسب محي الدين – دار الكتاب – بيروت 2008

أهم نظريات الحجاج في التقالي الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، د.ت

بلاغة النص النثري، إشراف محمد مشبال – دار العين للنشر، الإسكندرية 2013

البلاغة فنونها و أفنانها، فضل حسان، دار الفرقان، ط4، 1974

التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي - مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 2005

التكملة لكتاب الصلة ، لابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، منشورات العطار الحسيني – 1906

ثلاث رسائل في الطاعون الجارف تحقيق محمد حسن – بيت الحكمة – تونس 2013.

الخطاب والحجاج أبو بكر العزاوي، بيروت 2010

الفعل اللغوي بين الفلسفة و النحو ضمن كتاب " التداوليات علم استعمال اللغة" ط2، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع بيروت 2014

فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي محمد السولامي، الرباط 1992

في بلاغة الخطاب الإقناعي" محمد العمري– إفريقيا الشرق – ط2 بيروت 2002.

المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو ترجمة محمد يحياتن – منشورات الاختلاف ط1 الجزائر 2008

المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون –أحمد السعداوي revue de l’institut des belles lettre arabes 58 eme année1995 N : 175

مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل لابن الخطيب ممد بن عبد الله السلماني ، تحقيق حياة قارة – منشورات دار الأمان، الرباط 2015

مقامات و رسائل أندلسية – نصوص و دراسات – فرناندو دي لاجرانخا (الشنتمري) ، ترجمة و تقديم أبوهمام عبد اللطيف عبد الحليم . المجلس الأعلى للثقافة د.ت 132

المقامة في الأدب المغربي و الأندلسي لعبد العزيز بومهرة ، مجلة "التواصل"، عدد 31 – سبتمبر 2012

نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان – الحسين بنو هاشم – بيروت 2014

نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التمبكتي – طرابلس 2000